مقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى. . . وبعد،

فقد شاء القدر أن يتأخر هذا الجزء عن موعده سنين طوالا، فقد بدأت أكتب في سلسلة (حتمية الحل الإسلامي) منذ قدمت إلى قطر أوائل ثمانينات القرن الرابع عشر الهجري وأوائل ستينات القرن العشرين الميلادي.

وكان دافعي الأول في الكتابة في هذا الموضوع، هو الرد العلمي على التنادي بما سموه (حتمية الحل الاشتراكي) الذي أعلنه (الميثاق الوطني) المصري، الذي سماه من سماه (قرآن الثورة)!!.

ولم يكن إيماني بالحل الإسلامي لمجرد أني مسلم فقط، والمسلم لا يصح إسلامه، ولا يتم إيمانه إلا بالرجوع إلى منهج الإسلام في مختلف جوانب الحياة، والرضا بحكم الله ورسوله فيها، ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (الأحزاب: ٣٦).

إنما كان إيماني بالحل الإسلامي نتيجة الدراسة والتحليل والموازنة، وقراءة التاريخ، واستقراء الواقع لأمتنا.

فإذا قرأنا التاريخ ـ قراءة الفاحص المدقق ـ نجد أن النصر والقوة والامتداد والرقي والازدهار والاستقرار مرتبطة بمقدار القرب من تعاليم الإسلام، وحسن فهمها، وحسن تطبيقها في الحياة كما تشهد بذلك مراحل تاريخية متعددة،

(★) كتبت هذه المقدمة في الطائرة البريطانية المتجهة من الدوحة إلى لندن مساء يوم الخميس ١٢/٤/١٤٠٨هـ، الموافق ٣/١٢/١٩٨٧م.

obeikandi.com

تبدأ بمرحلة النبوة، ومرحلة الخلفاء الراشدين، وفترات خلافة عمر بن عبد العزيز، وإمارة نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح وأمثالهم من أئمة العدل والإحسان.

كما أن الهزيمة والضعف والانكماش والانحطاط والذبول والاضطراب، مرتبطة بمدى البعد عن تعاليم الإسلام فهماً وتطبيقاً، كما تشهد على ذلك أكثر فترات تاريخنا للأسف الشديد.

ومن يقرأ بإمعان وتأمل كيف دخل الصليبيون إلى وطننا، وكيف احتلوا بيت المقدس، وكيف دخل التتار إلى ديارنا، وكيف دمروا بغداد، وقضوا على دولة بني العباس... وكيف طرد المسلمون من الأندلس، بعد ثمانية قرون أقاموا فيها حضارة رفيعة العماد، وكيف تحولت الدولة العثمانية التي أرهبت أوروبا كلها لعدة قرون إلى (الرجل المريض).. من يقرأ ذلك كله وغيره يستيقن أن أمتنا لم تؤت إلاَّ من أنفسها قبل كل شيء... حين تتمسك بقشور من الإسلام وتدع لبابه وجوهره أو تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض، اتباعاً لأهوائها، أو أهواء آخرين حذرها الله منهم حين قال لرسوله: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ (المائدة: ٤٩)، ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ (الجاثية: ١٨).

وإذا تركنا التاريخ لنستقرىء الواقع الملموس أمام أعيننا في بلادنا الإسلامية، فلن نجد إلا واقعاً مراً يشكو منه الجميع على كل الأصعدة، وفي كل المستويات، ومن كل الطبقات.

ومعنى هذا أن نهضتنا ـ التي اعتمدت على استيراد الحلول من غيرنا ـ لم تؤت أكلها، ولم تحقق أهدافها، ولم تجن منها أمتنا الثمرات المرجوة في دنيا الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة أو العمران، أو غيرها من الجوانب المادية والمعنوية.

وهذا ما بيناه في الجزء الأول من هذه السلسلة (الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا) سواء كان هذا الحل يمينياً ليبرالياً، أم يسارياً اشتراكياً.

كما بينا في الجزء الثاني من هذه السلسلة: أن (الحل الإسلامي فريضة وضرورة): فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع. وبينا في ذلك الجزء شروط الحل الإسلامي، ومعالمه، ومكاسبنا من ورائه، كما ألقينا الضوء على الطريق إلى الحل الإسلامي، نظراً لاختلاف وجهات المهتمين بذلك، وتعدد طرائقهم، وقد ناقشنا هذه الطرق، وانتهينا إلى ضرورة وجود حركة إسلامية شعبية واعية تقوم على الدعوة والتربية والتكوين، وعلى التخطيط والتنظيم، وتعمل على مستوى الإسلام، ومستوى العصر، ومستوى ما يعمله خصوم الإسلام.

ولكن جماعة العلمانيين من دعاة اليسار، وأتباع اليمين، يوجهون اتهامات أو قل: يثيرون شبهات حول الحل الإسلامي، وهي في حقيقة الأمر شبهات لا وزن لها، ولا تقوم على ساقين، ولكنهم من طول ما ردَّدوها ـ أو ردَّدها عليهم أساتذتهم وموجِّهوهم ـ صدَّقوها، أو أوهموا الناس أنَّهم مصدِّقون لها، وإن كانوا في قرارة أنفسهم مؤمنين بتفاهتها وهزالها.

وفي هذا الجزء رددت على شبهاتهم الأساسية والكبرى، وقد أجملتها في سبع: هي كما يصورها أصحابها:

(١) : كيف تدعوننا إلى حل يعتمد على الدين في عصر العلم والتكنولوجيا، وقد انتهى عصر الدين وتقوضت خيامه، ولم يتقدم الغرب إلا بعد أن طلق الدين، وتحرر من ربقة رجاله، واتجه إلى العلم والعقل؟.

(٢) ـ كيف نقبل حلاً طابعه (الجمود) والوقوف في وجه (التطور) في عالم تغير فيه كل شيء، وفي عصر سريع التحول، وكيف نجمد والدنيا تتحرك، وكيف نقف مكاننا والعالم يسير، والفلك يدور؟.

(٣) : كيف نرضى بحل (رجعي) يشدنا إلى الوراء، ويعارض (التقدم) ويتنافى

مع (المعاصرة) والتحديث؟.

(٤) : كيف تدعوننا إلى حل غايته أن يقيم (دولة دينية) ثيوقراطية تتحكم في رقاب الناس وضمائرهم، عن طريق الكهنة ورجال الدين الذين يفرضون إرادتهم على الخلق باسم الخالق، وفي الأرض باسم السماء؟.

(٥) : وكيف تسيغ معدة هذا العصر ـ في أواخر القرن العشرين ـ حلاً كل همه أن يقطع الأيدي، ويجلد الظهور ويقتل الجناة أو يصلبهم أو يرجمهم، وهو ما يلح عليه دعاة تطبيق الشريعة، وخصوصاً في مجال (الحدود) والعقوبات؟.

(٦) : ثم كيف نستجيب إلى حل غامض، لم توضح معالمه، ولم تبين حدوده، ولم تفصل برامجه، ولم يقدم لنا العلاج التفصيلي لمشكلاتنا اليومية؟.

(٧) : وأخيراً كيف تنسون ـ أيها المسلمون ـ أنكم لستم وحدكم في هذه الأوطان العربية والإسلامية فمعكم أقليات لا تدين بدينكم، ولا تؤمن بشريعتكم، فكيف تفرضون عليها حلاً يكرهها على غير ما تعتقد، مع أنه ﴿لا إكراه في الدين﴾، وأهم هذه الأقليات هي الأقلية النصرانية، من أرثوذكس أو كاثوليك أو غيرهم؟.

وقد رددت على هذه الشبهات واحدة واحدة بالتفصيل الملائم، معتمداً على منطق العلم والعقل الذي علّمناه الإسلام، والحمد لله، لقد تهاوت شبهات العلمانيين والمتغربين أمام بينات الحل الإسلامي، وحجج الإسلاميين.

ولقد تبينت من قراءة ما يكتبه دعاة العلمانية والتغريب في أوطاننا: أن العلمانيين يحاولون أن يغالبوا الإسلاميين بالتهويل والتضليل والإرهاب الفكري والنفسي، إنهم يلقون حبالهم وعصيهم معتمدين على الغرب وقوته، ومساندته لهم، قائلين: بعزة فرعون إنّا لنحن الغالبون! يريدون أن يسحروا أعين الناس ويسترهبوهم، وربما أوجس بعض الإسلاميين خيفة، من كثرة حبالهم وعصيهم، وربما خيِّل إليهم من سحرهم أنها تسعى! حتى إذا ما حللوا

هذه الشبهات في ضوء العلم والبرهان علموا أنها كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى.

وصدق الله العظيم: ﴿قال موسى: ما جئتم به السحر، إن الله سيبطله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ويحق الله الحق بكلماته، ولو كره المجرمون﴾.

وصدق الشاعر الذي قال:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر!

وقد سبق هذا الكتاب كتاب آخر هو أخ له، يرد على العلمانيين عامة، وعلى د. فؤاد زكريا خاصة، وهو كتاب «الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه» وكلاهما يتمم الآخر، ويشد عضد أخيه.

وإن كانت مادة هذا الكتاب، في معظم فصوله قد أعدت من زمن طويل، وبعضها نشر منذ بضعة عشر عاماً، منه ما نشر في مجلة (الشهاب) اللبنانية، وما نشر في مجلة (منار الإسلام) الظبيانية، وفي مجلة (الأزهر) المصرية، وفي مجلة (الدوحة) القطرية، وكان الفصل المتعلق بالدولة الدينية هو الذي لم أكتبه إلا مؤخراً، وكم من كتب عندي شبه مكتملة لا ينقصها إلا جزء يسير، ربما كان فصلاً أو بعض فصل، أحاول أن أكملها، فتأبى الواجبات الآنيَّة، والمشاغل العارضة، إلا أن تؤخِّرها إلى حين، حتى يوفق الله لإتمامها، وكل شيءٍ بأجلٍ مسمًّى.

وأود أن أوضح نقطة هنا فهمها بعض الناس على غير ما أريد، وهي معنى (الحل المستورد) الذي أنكره. إنني لا أعني الحل الجزئي لمشكلة من المشكلات التي تشكو منها مجتمعاتنا، مثل مشكلة المواصلات أو الإسكان، أو غلاء الأسعار، أو انتشار المخدرات، أو ضعف الإنتاج الحيواني أو الزراعي أو السمكي، أو تسيب العاملين في المؤسسات العامة، أو نحو ذلك من الآفات التي ابتلينا بها ولم نفتأ نشكو من ويلاتها.

فإذا وجدنا حلاً لمشكلة من هذه المشكلات في دولة من الدول، رأسمالية كانت أو شيوعية، فلا يوجد مانع من شريعتنا أن نستفيد من هذا الحل، وأن نقتبس مما عند القوم.

وهذا ما ذكرته بوضوح في الجزء الثاني من هذه السلسلة (الحل الإسلامي فريضة وضرورة) وبينت مشروعية الاقتباس وحدوده، ورددت على الذين يرفضون أي فكرة جزئية تقتبس من أي نظام آخر، مثل فكرة الانتخاب والاستفتاء، وصولاً إلى أهل الشورى أو أهل الحل والعقد، وفكرة الترجيح بالأكثرية العددية في الأمور المباحة، وغيرها، مما يمكن أخذه من الديمقراطية.

كل ما هو مطلوب هنا أن نقتبس ما يلائمنا، وأن نصبغه بصبغتنا، ونضفي عليه من روحنا وحضارتنا ما يجعله جزءاً من كياننا الحضاري، ويفقده جنسيته الأولى، ويكسبه الجنسية الإسلامية[1].

وقد زدت هذا الأمر بياناً في هذا الجزء في الفصل الذي يتحدث عن (الجمود والتطور) حتى ذكرت أنه يجوز لنا أن نأخذ من نظريات أمثال (ماركس) أو (فرويد) أو (دور كايم) ما نرى أنه لم يحد فيه عن الصواب وإن كنَّا لا نقبل فلسفته الكليَّة[2].

ومن ثم يتبين للقارىء المتفحص أن (الحل المستورد) الذي نرفضه هو (الحل الكامل) الذي يتبنى منهجاً أو اتجاهاً معيناً، يمينياً أو يسارياً، بأصوله النظريَّة، وجذوره الفلسفيَّة، وهذا ماقصدته، وما لا يفهم من كلامي غيره لمن قرأه كله، ولم يكتف بأن يغترف منه غرفة بيده.

على كل حال، لقد أصبح مفهوم (الحل الإسلامي) واضحاً بيناً، وأصبحت كلمة (الحل الإسلامي) مصطلحاً شائعاً، في كتابات كثير من

---

(١) انظر: الحل الإسلامي فريضة وضرورة، ص١٠٢ وما بعدها. ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر ص٨٦-٩٠ من هذا الكتاب.

الإسلاميين وغير الإسلاميين، بل نقل بعضهم عنوان السلسلة، وهو (حتمية الحل الإسلامي) وجعلها عنواناً لكتاب، كما أن مصطلح (فريضة وضرورة) قد نقله كثيرون، واتخذ عنواناً لبعض الكتب.

ولا يضيرنا ذلك، وإن كنا نود أن ينسب الشيء إلى أهله كما قال سلفنا: من بركة القول أن يعزى إلى قائله.

ولا يسعنا بعد ذلك إلا أن نحمد الله الذي هدانا لهذا، وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وندعوه تعالى أن يهدي أصحابنا المرتابين والمشكِّكين في الحل الإسلامي، من دعاة العلمانيَّة، الليبراليَّة والماركسيَّة، وأن يشرح صدورهم حتى يسمعوا ما نقول، ويقرؤوا ما نكتب، ولا يقولوا ما قال الأوَّلون: قلوبنا في أكنَّة ممَّا تدعوننا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينكم حجاب! وحتى يقرؤوا ـ إذا قرؤوا ـ بعقلية الباحث عن الحق، ويحكموا بروح من يتحرى العدل، ويسلكوا سلوك من يرجو الله والآخرة، ولا يريد علواً في الأرض ولا فساداً: «وما توفيقي إلاَّ بالله، عليه توكَّلتُ، وإليه أنيب».

الفقير إلى ربه

أ.د. يوسف القرضاوي

ouelkandl.com